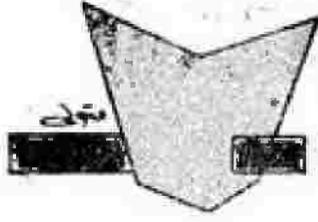


القصة



في الأديب الإنجليزي

بقلم الدكتور طه محمود طه

٢ - النبت

أولاً: القرن السابع عشر

وفي أوائل القرن السابع عشر بدأ اهتمام الجمهور بالروايات يفتر ، وبدأ يحل محلها ما يعرف برسوم الشخصيات Characteries وهي تقليد بارع لشخص Theophrastus ، تلميذ أرسطو وصديقه . ولم تتطلب هذه الدراسات التحليلية للشخصيات قصة ولكنها كانت تشير إلى الاهتمام بالعلم الحديث واهتمام الكاتب بالتفسيرات في الأنماط وفي الطبيعة البشرية . وكان هذا الاهتمام نتيجة للأراء الفلسفية والعلمية السائدة في ذلك الوقت واهتمام الفلاسفة والمفكرين بالأشياء والمفردات لا بالكليات ، بالمعنى لا بالمجرد . وكانت رسوم الشخصيات أقرب للمقالة منها للقصة ولكنها تطورت في النهاية لتكون جزءاً هاماً من دراسة الشخصيات كما نعرفها في القصة .

وفي هذه الرسوم ظهرت أنماط كثيرة من قطاعات مختلفة من الشعب ، وأدت طريقة العرض للشخصيات إلى تقدم النشر الفني في القصة ، وأصبحت لغة الوصف أدق مما كانت عليه بكثير عندما بدأ الكاتب يركز فكره حول الأنماط المختلفة حتى أصبحت هذه الطرز تحتل المكانة الأولى بدلاً من الشخصيات ، وأدى هذا إلى إهمال الشخصيات العادية . وكان علم النفس في ذلك الوقت لازال مرتبطاً بأراء العصور الوسطى في الشخصية ، بتقسيم الناس إلى أربعة فئات حسب أمزجتهم (هوائى ، أرضى ، ناري ، مائى) أو

الصفراوي ، الفاتر (البلفمي) ، ديمى المزاج او حاد الطبع ،
مكتب .

ومن أشهر كتاب «الشخص» سير توماس أوفربري
الذي نشر في عام ١٦١٤ « واحد وعشرون صورة نثرية
Twenty-one Prose Portraits وأهمها » بأنة
اللبن ، وسبقه جوزيف هول حينما نشر في عام ١٦٠٨
شخصيات فاضلة وشخصيات رذيلة Characters of
Virtues and Vices وتبعهما صامويل بتلر وجون ايرل
وجون كليفلند وقد أضفت رسوم الشخص على النثر
الانجليزي دقة في التعبير ، ومهدت هذه الدراسات للشخص
لتحليلها فيما بعد تحليلا مستفيضا . وقد نشر من هذه
الاعمال ما يزيد عن مائة وخمسين في القرن السابع عشر ،
وهذا دليل على شيوعها .

وفي منتصف القرن السابع عشر تقريبا ظهر ثلاثة
انواع من القارئ : القارئ الواعي المتعلم المتحمس للروايات
الفرنسية ، والقارئ الذي يفضل قراءة «رسوم الشخص»
والقارئ الواقعي الذي يستمتع بالقصص الواقعية التي تعالج
حياة الطبقة الفقيرة والكارسك أو ادب الشطار . وكان
أثر الادب الفرنسي عظيما عندما ظهرت « اميرة كليف » وهي
رواية من تأليف مدام دي لافاييت ، وكان لظهورها في عام
١٦٧٨ أثره الكبير في تطور الرواية . ويمكننا ان نعتبر
« اميرة كليف » أول قصة لأنها كانت ثورة على التقديم من
حيث بنائها واطارها ، فقد كانت قصيرة وموجزة وظهرت
فيها وحدة التحبكة ولم يتخللها سرد خارج عن الموضوع
وكانت بطلتها سيدة متزوجة . وبالرغم من ان حوادث القصة
تدور أيام الملك هنري الثاني (١١٢٣ - ١١٨٩) الا ان العادات
والتقاليد فيها تانستوحاه من عصر مؤلفتها . وموجز
القصة يدلنا على الشوط الذي قطعته القصة حتى الآن وكيف
انها نبذت تقاليد الرواية ، فالقصة تدور حول ماساة القلب
الانساني وتجد بطلتها وهي سيدة متزوجة ، نفسها تبادل
السيد « تهور » حبا بحب ، وتحاول أن تسيطر على عواطفها
وتكبح جماح هذا الحب الوليد في صدرها ولكنها لا تستطيع
ان تغلب عليه أو حتى ان تتجاهله ، واذا رضخت واستسلمت
لهذا الحب فمعناه ضياع شرفها . واخيرا تعترف لزوجها
الذي يعبدها وترجوه ان يطلقها ويبعدها عن البلاط .

ويوافق الزوج ولكن انتصحية كانت اكثر مما يحتمل وكانت
سييا في وفاته بالحمى ولم يكن لديه لا الرغبة ولا القوة
والعزيمة مقاومة المرض . وبهذا تصبح الاميرة حرة ولكنها
لا تستطيع ان تنعم بالحياة مع « نيمور » وتفارقه انا الابد .

وفي هذه القصة يخيل اليانا ان النشر القصصى قد ظهر
الى حيز الوجود لانه في نفس هذا العام ظهر كتاب « بانيان »
« سعى الحاج » The Pilgrim's Progress يعتبر
انموذجا في الادب الانجليزي ودليلا واضحا على الفرق بين
الروح الفرنسية في الرواية والروح الانجليزي في القصة في
القرن السابع عشر .

ويعتبر كتاب بانيان « سعى الحاج » الومضة الاولى في النشر
الانجليزي ، فيلانيان ، (١٦٢٨ - ١٦٨٨) شأنه في ذلك شأن
بليك (١٧٥٧ - ١٨٢٧) ، يعتبر فلتة ، ليس له مثيل من قبله
ولا من بعده . فنحن لا نجد له مكانا في اطار تطور القصة
الطبيعي ، ومع ذلك فهو انجليزي فح وكان ابوه يعمل
بسمكريا . وخدم بانيان اثناء الحرب الاهلية وتزوج واصبح
مثل ابيه سمكريا ، وبعد ان استهوته الحياة الدينية اصبح
واعظا ، وفي عصر عودة الملكية في انجلترا (١٦٦٠ - ١٧٠٠)
اتهم بالفناء المواعظ دون ترخيص وزج به في السجن لمدة اثني
عشر عاما وقد قام بكتابة رائعته الخالدة « سعى الحاج »
عندما حكم عليه بالسجن مرة اخرى لمدة ستة اشهر وتوفي
عام ١٦٨٨ .

ولكي نقدر بانيان حق قدره يجب علينا ان ندرس حياته
في ضوء حوادث عصره الدينية ، ويجب ان نأخذ في الاعتبار انه
بانئصار المذهب البروتستنتي اصبحت المسئولية ملقاة على
عاتق الفرد وليس على عاتق رجال الكنيسة من ناحية الضمير،
ولم يعد طريق الخلاص مقصورا على رجال الكنيسة بل اصبح
يكمن في الايمان الفردي العميق وفي العلاقة بين روح الانسان
وخالفه . وكان من اثر هذا التفسير للمذهب البروتستنتي ان
مر بانيان بتجربة روحية عميقة وشعر بثقل العبء الملقى على
كاهل الفرد . وسيطرت فكرة الجحيم على عقله سيطرة تامة ،
ولم يكن هذا بسبب انتشارها في العصور الوسطى فحسب
بل كان بسبب ايمان المتطهرين بان فريقا من الناس فقط هم
الذين يستطيعون النجاة من العذاب ولهذا كانت صورة
الجحيم تملا عقله ووجدانه منذ طفولته . و « سعى الحاج »

تصور قصة المسيحي الذي يشعر بضرورة ترك بلدته المقضى عليها بالهلاك وخاصة بعد قراءة الانجيل ومثول البشر له في رؤيا يأمره فيها بالفرار . وتصور القصة الطريق المحفوف بالصعاب وقلة من سيصلون في نهايته الى الفردوس . ويعتبر الكتاب الاول من نوعه الذي تجسد فيه المعنويات حية ناطقة في هيئة شخص .

وفي هذا القرن تظهر ايضا النساء الكاتبات واشهرهن مسز أفرا بن (١٦٤٠ - ١٦٨٩) وقد بدأت حياتها الفنية بكتابة المسرحيات الهزلية ولكنها ، في ثرها القصصي ، وقعت تحت تأثير منهج الفرنسيين في محاولتهم للتقريب بين جو الرواية الرومانتيكي وبين الحوادث الواقعية في القصة المعاصرة . وأول كتاب لها كان عنوانه « خطابات غرامية بين نبيل واخته » في عام ١٦٨٢ ولكن قصتها الموجزة « اورتوكو » التي نشرت بعد وفاتها تعتبر حدثا هاما في تاريخ القصة لانها تصر على ان حوادث القصة حقيقية وانها كانت شاهد عيان . وتختلف القصة عن باقي قصص العصر في ان بطلها ملون ونهايتها مفاجئة وتقع حوادثها في غيانا الهولندية في ذلك الوقت والقصة اول قصة في الادب الانجليزي تعالج مشكلة اضهاد العبيد .

والبطل اورتوكو امير كورمانيين وحفيد ووريث الملك المسن ويعتبر النموذج او المثال الاصلى لفكرة جان جاك روسو للانسان الفطري النبيل ذي القلب المخلص الطيب . ويقع اورتوكو في حب « امونيدا » ابنة رئيس القبيلة ولكن لسوء الطالع يبالغ اتباعه في وصف جمالها للملك الذي يضمها عنوة لحريمه . ويعلم الملك فيما بعد بانها تقابل الامير سرا ، ويفضض ويشور ويبيعها كجارية ، أما الامير فيلحق بالجيش ويقع في شباك مؤامرة وبحيلة غادرة يجد نفسه على مركب للعبيد تنقله الى سورينام حيث « سبقته امونيدا » . ويستطيع الحبيبان ان يكتسبا عطف تاجر اسكتلندي اسمه ترفري ويسمح لهما بالزواج وبعدهما بتحريرهما عند حضور الحاكم البريطاني الذي يتأخر عن الحضور . ولا يصبر اورتوكو على ذلك ولا سيما وان زوجته كانت تنتظر مولودا وهو لا يريد لابنه ان يصبح عبدا مثله . ولهذا يجمع العبيد من حوله ويحرضهم على الهرب الى الادغال حيث الحرية في خطاب مؤثر :

لماذا نرضى ان نكون عبيدا لهؤلاء البيض ؟ هل هزمونا

بشرف في أي معركة ؟ هل أصبحنا أسرى لهم بمقتضى القوانين
الحربية ؟ كلا ، لقد اشترونا وبيعونا مثل القروذ والماشية ،
وهم ليسوا سوى مجموعة من الأفاقيين طردوا من بلادهم
بسبب سفالتهم . وهل ندع مثل هؤلاء الناس يضربوننا
بالسياط ويلهبون ظهورنا كما يحلو لهم ؟ ويقودهم بنسائهم
وأطفالهم إلى الغابات ، ويلحق بهم الجنود في ظرف يومين
وتنشب معركة ويستسلم الأمير بعد أن يعده الحاكم بأن
يسمح له ولزوجته وابنه بالرحيل إلى كورمانتين . ويصدق
الأمير وعود الرجل الأبيض ويرجع مع الجنود ، ولكن بدلا
من البر بوعده وبدلا من عتقه ، يجلده الحاكم علنا ويزوج به
في السجن . وينقذه من هذه المحنة التاجر الاسكتلندي
تريفري ، ولكن بعد أن أفقده عذاب السجن صوابه فيقتل
زوجته لينقذها من وصمة العبودية ويقتل هو الآخر شر قتله
على يدي جنود الجيش المرابط .

ونرى في هذه القصة ، وربما لأول مرة ، نوعا من التباين
بين شخصية الرجل الفطري النبيل وشخصية الرجل الأبيض
الشرير . فالرجل الفطري كما تصوره الكاتبة رجل متكامل
الشخصية ونزيه ، لم تفسده حياة المجتمع في الشعوب
المتحضرة .

وتعتبر اليزا هايوارد من الأدبيات النشيطات أيضا
ولكنها كانت تهتم فيما تكتبه بتاريخ فضائح عصرها . وأشهر
كتبها « تاريخ بيتي ثوتليس » أي تاريخ بيتي الطائشة
١٧٥١ . والكتاب الآخر هو « تاريخ جيريمي وجيني جيسامي »
١٧٥٣ وبالرغم من أن هذا النوع من الكتابة لم يكن له
فائدة فنية أو أدبية مباشرة إلا أنه مهد السبيل لظهور
الواقعية في القصة وجعلها تقترب رويدا رويدا من الحياة
العامة للناس .

ويبدو أن الجمهور كان يقبل على هذا النوع من الكتابة ،
وهذا دليل على أن ذوق الجمهور كان قد بدأ يقترب من وقائع
الحياة وأصبحت الرواية بمعناها القديم لا تروق له .

ويعتبر دانييل ديفو (١٦٥٩ - ١٧٣١) المبقرى الانجليزي
الذي طوع النشر لخدمة أغراض القصة ، ومن بعده أصبح
تصور الحياة والملاحظة الدقيقة لما يجري حول الكاتب العاملين
الأساسين في أي قصة . ولعله كان من محض الصدفة أن تمكن
ديفو من احاطه مواقفه الخيالية بسياج من الواقعية والحقيقة

واضفاء مسحة من الصدق والامانة للواقع على قصته . وكان ديفو يحب المغامرة منذ صغره وشغل وظائف عدة منها التأليف والصحافة ، وعندما أفلس في تجارة بيع الجوارب والملابس الداخلية استرد ثروته عن طريق التجارة في الأجر . واصبح فيما بعد عينا للدولة تستخدمه في مهمات سرية كما شغل عدة وظائف أخرى منها تحرير الصحف والترجمة والاقتصاديات . والقصص التي يشتهر بها ظهرت في حياته مؤخرا وكتبها أثناء فراغه ولم تكن همه الاول . ويعد ديفو بحق من العباقرة فقد خلق أنواعا كثيرة من الكتابة الصحفية ، وكان يتكلم خمس لغات ويقرأ السادسة ، وكان يصف نفسه بأنه يحدق علوم الفلك والجغرافيا والتاريخ كما كان التراث الانساني والحضارى يثير اهتمامه دائما كما كان فى عمله الصحفى ، سابقا الى مسرح الحوادث . وعندما كتب قصته المشهورة « روبنسون كروزو » كان سنه ٥٩ عاما وكان مشغولا بتحرير عدة صحف كما كان يساعد الحكومة فى مقاومة نشاط اليعاقبة . ويتميز ديفو بمقدرته الفائقة فى خلق التفاصيل وحشد الملابس المقنعة من ظروف الحادثة مما جعل « روبنسون كروزو » حدثا هاما فى تاريخ القصة . وقصة « روبنسون كروزو » تعتمد على حادثة واقعية حقيقية لبحار اسمه اسكندر سيلكريك قضى اربعة أعوام وحيدا على جزيرة جوان فيرنانديز فى عام ١٧٠٤ حتى انقذه كابتن « وودز روجرز » فى عام ١٧٠٩ . والسبب فى أهمية الكتاب وشهرته هو ان القصة تمجد صراع انسان بمفرده على جزيرة مع قوى الطبيعة التى يمكن قهرها والسيطرة عليها والى أسلوب السرد التى تشتهر به القصة . وامتدت الاربع سنوات فى قصة ديفو الى ثلاثين عاما قضاه روبنسون كروزو على جزيرته ، واصبحت القصة رمزا لانتصار القرن الثامن عشر على الطبيعة .

وفى خلال الثلاثين عاما يعيش كروزو عيشة رغدة وينجح كذلك فى ان يجعل خادمه فرايداي يعتنق المسيحية ، ويتغلب على سكان الجزيرة المتوحشين ويصبح سييدا عليهم . واستطاع ديفو ان يستغل كل لحظة من حياة كروزو ويشحنها بالدلالة . وازاء هذه البراعة لا يسعنا الا ان نصدق كل ما فى القصة لان ديفو لا يفوته أى شى - من صنع منخل الى حلب العنزة ومن اعداد الطعام الى تحصين المنزل . ولم يحرم ديفو جمهوره من أى شىء ، هذا الجمهور الذى كان متعطشا للحقائق والذى كان يهه جدا معرفة التفاصيل الدقيقة التى

تعطى للقصة جوا واقعيا حقيقيا . فقد كان كروزو نموذجا يمثل افراد الطبقة الوسطى التى كانت قد بدأت فى الظهور . وقد تمثلت صفات هذه الطبقة فى شخص كروزو ومن هذه الصفات كان حبهم للعمل وسعة الحيلة وقصور خيالهم ، فنحن نجد كروزو منهمكا فى اعماله اليومية بنوع من التفانى حتى انه لا يضيع وقته فى التفرل فى غروب الشمس ولا يتذوق جمال الطبيعة من حوله حتى ولو مرة واحدة خلال القصة كلها ، وانما ينظر الى الاشياء نظرة نفعية من ناحية فائدتها فقط فقد كان ، كابناء عصره من الطبقة الوسطى ، رجلا عمليا الى أبعد الحدود . وقد كان المذهب النفعى هو المذهب السائد فى ذلك العصر مما حيب الى نفوس الشعب هذه الشخصية التى تتغلب على الفراغ والكسل بالعمل والإنتاج ولا تميل الى التفكير والخيال وتعتبر النشاط والحركة اهم من التأمل والاستبطان .

وهكذا تطلب ظهور جمهور معين من القراء تغيرا فى موضوع القصة وقواعدها . وكان من جراء شيوخ هذه القصة ان اتبعها ديفو بكتاب آخر فى عام ١٧١٩ بمغامرات اخرى لروبنسون كروزو . وفيه يزور كروزو جزيرة مرة اخرى مع خادمه فرايداي ويهاجمه افراد القبيلة فى مجموعة من الزوارق وينجو كروزو بعد ان يفقد خادمه فى المعركة . وفى عام ١٧٢٠ نشر ديفو « كابتن سنجلتون » وهى قصة صبي اختطفه الفجر وأصبح قرصانا يجوب الشواطىء والبحار بحثا عن الغنائم . وكانت القصة واقعية حتى ليخيل اليانا ان ديفو كان يكتب عن مغامرات بطله فى افريقيا وخرىبطها فى يده .

وقصته « مول فلاندرز » تضيف الاهتمام بالحلب الى موضوعات قصصه السابقة ولكنها كانت بعيدة عن الواقعية كل البعد وبالرغم من انها من نوع ادب الشطار او البيكاريسك الا ان بطلتها كثيرا ما تندم على الظروف التى دفعتها الى مثل هذه الحالة ، وبالرغم من سوابقها الاجرامية وانحرافها فان مول فلاندرز مخلوقة تشد القراء اليها اذ انها كريمة وعاطفية ، ونحس احيانا انها حقيقة فريسة للاقدار فهى تعثر على الأزواج بسهولة وتتخلص من اولادها بسرعة عجيبة وتمر بتجارب كثيرة تكفى لكتابة عشرات القصص .

ولقد كان ديفو ممثلا للطبقة الوسطى ولكن آراءه

ومعتقداته الدينية لم تكن الدافع الاساسى لكتابه ، وحرص في كثير من الاحيان على ان يمزج الوعظ بكثير من الفكاهة والامتناع ، ولم يسمح للدرس الخلقى ان يطفى على القصة . وهكذا وجد أفراد الطبقة الوسطى والفقيرة أخيراً صورة صادقة لآمالهم وأفكارهم وظروفهم في عمل أدبي ، ووجدوا في القصة مشاركة وجدانية لآلامهم واهتماماً بمصائبهم وحياتهم .

وقد كان لعقلية هذه الطبقة أثرها في وقف نمو القصة في القرن الثامن عشر وتعويقها عن التطور بسرعة ، بعد ان قطعت هذه المرحلة من تاريخها الطويل ، لان ضعف قدرتهم على التخيل حد من تطورها وكانوا على استعداد لتقبل أى نوع من النثر القصصى على شرط ان يقدم لهم في صورة حقائق . وقد استغل ديغو هذا الميل الى أبعد حدوده وكانت هذه الحقائق تلهب خياله وكان أسلوبه النثرى البسيط - أسلوب الصحافة والدعاية - اهم وسيلة للتعبير في كتبه . وهكذا بدأ النثر يثبت جذوره في الأرض ومن بعده استعمله كتاب القصة في وصف حياة أشخاص عادية ووعوا الدرس الذى اقنوه إياهم ديغو .

ومن عيوب ديغو في قصصه عدم قدرته على الاختيار وتصنيف مادته الفزيرية وترتيبها ، فقد كان يكس الحوادث بعضها فوق بعض دون ان يحرص على الاطار العام للقصة كما ان يكن حريصاً على تصيد تلك الظروف التى تبرز الازمات في حياة الشخص .

وتبع سويفت (١٦٦٧ - ١٧٤٥) ديغو في كتابه القصة ، ولكن الصفات التى جعلت من سويفت كاتباً عظيماً كانت هى نفسها التى عاقته عن تطوير القصة . فقد كان شعوره حيال البشرية مملوءاً بالحقق والكرهية والاحتقار ، ولهذا تهتك نسيج الحياة تحت تأثير سخريته اللاذعة . وقد أحس سويفت بالتسلط السياسى والعفن الخلقى وعدم الثقة وحب السيطرة والاستغلال احساساً عميقاً لانه كان ذا شخصية حساسة فذة تهوى التوافق والانسجام والجمال والكمال . وتبلور هذا الشعور فى كتابه « رحلات الى عدة بلاد بعيدة فى العالم » أو ما يعرف برحلات جليفر . وفيها يظهر الانسان فى صورة حيوان بشع تجرد من إنسانيته وأدميته أطلق عليه سويفت

اسم Yahoo وكأنه يستجير من ظلم الانسان لاختيه
الانسان .

ولم يدخل سويفت من الجديد على فن القصة الا القليل
ولكنه اثبت مقدرة النشر على التهمك والاستهزاء ويظهر اثره
واضحاً في دزرائيلي والدوس هكسلي وجورج اورويل .

وهكذا وبانتهاء القرن السابع عشر اصبح لنقصة كل
العوامل التي تساعد على النمو والازدهار - الواقعية ،
التحليل النفسي ، جدية الغرض ، الاطار ، واسلوب النشر
الذي يمكنه ان يعبر عن الحالات والمواقف المختلفة . وكل
هذه العناصر والوسائل والمواضيع كانت تنتظر الكاتب
القصصي الذي يستطيع ان يؤلف بينها ويستفيد منها ليخلق
لنا ما نعرفه اليوم بالقصة .

٢ - الازهار : القرن الثامن عشر

وهكذا وبعد محاولات عديدة وتجارب شتى بدأت
القصة تأخذ شكلاً خاصاً وتثبت جذورها وأصبحت تكون
فرعاً فريداً من فروع الادب المختلفة على يدي ثلاثة كتاب في
القرن الثامن عشر وهم صمويل ريتشاردسون وهنري فيلدنج
وتوبياس سموليت . وقد ظهرت أعمالهم في الفترة ما بين
عام ١٧٤٠ (العام الذي نشرت فيه قصة ريتشاردسون
« بامبلا ») و عام ١٧٧١ (العام الذي توفي فيه سموليت)
وترجع أهمية هؤلاء الكتاب الثلاثة الى ادراكهم لاهمية هذا
النوع من الكتابة وهو ما اسماه فيلدنج باللمحة الهزلية
المنشورة . واخذت قصصهم طابع العصر الذي كتبت فيه
واقبلت الطبقة الوسطى - التي كانت قد تعودت على نهد
المسرح منذ عصر المتطهرين حينما أغلقت المسارح من عام
١٦٤٢ الى عام ١٦٦٠ - على قراءة القصص التي كانت تعالج
مشاكلهم . وبالإضافة الى ذلك فقد حرص ريتشاردسون
وفيلدنج على ان يكتبوا في ذهنهما غرض أخلاقي وميل الى
الحكم على الشخصوس على أساس خلقى بحت . ولفترة طويلة
خضع التحليل النفسي للشخصوس وخضعت الاعترافات
الجمالية لهذا الغرض الاساسي من كتابة القصة . وكما حدث
من قبل ، تطورت القصة على أيدي رجال ونساء غير مرموقين
في الحقل الادبي ، فقد كان ريتشاردسون ، ذلك الرجل
الخجول ، يحترف الطباعة . وولد في « دربي شاير » في عام
١٦٩٨ من أب يعمل نجاراً وكان له طابع معين منذ الصغر

يؤهله لدراسة اللاهوت ولكن والده لم يكن قادرا على تعليمه .
وترك المدرسة وسنه ستة عشر عاما وبدأ في تثقيف نفسه
بنفسه ويرجع الفضل في ذلك الى رعاية رجل مجهول له ،
وتوفي هذا الشخص والتحق ريتشاردسون بمطبعة ليعمل
فيها بجد ونشاط ، وظهر ميله منذ الصغر الى التهذيب
الخلقي والإرشاد . فيقول عن نفسه :

« ولم ابلغ من العمر أحد عشر عاما حينما كتبت تلقائيا
الى امرأة تبلغ الخمسين كانت تدعى حماسها للدين بالرغم
من حبها للمشاجرات عن طريق الوقعة ونشر الفضائح بين
اصدقائها ومعارفها . وقد اصطنعت أسلوب رجل كبير في
السن يحفرها ويعنفها ويعاتبها ويرشدها . »

واكن السيدة اكتشفت سنه من خط يده واشتكته لأمه
التي نهرته .

ومنذ بلغ الثالثة عشر من عمره كان يجمع لا شعوريا
مادة كتبه ، وأصبح صديقا لثلاث نساء يعملن بالحياكة
ولا يعرفن بعضهن ، وكن يثقن به ويعهدن اليه بكتابة خطاباتهن
الفرامية وينشدن معونته وكل هذا لعلمهن بكمانه السر
واخلاصه . ومن خلال هذه الخطابات الفرامية تعلم
ريتشاردسون الكثير فهو يقول انه حينما كانت احداهن
تطلب منه أن يوبخ من تحب كانت لا ترضى احيانا عن بعض
العبارات التي كانت تبدو قاسية في حين انها قد تكون هي
الالفاظ المناسبة ، وهذا يعطينا فكرة عن قلوب النساء وكيف
انهن يظهرن غير ما يخفين . واصبحت لريتشاردسون من
خبرته بقلب المرأة الذي يزخر بالمتناقضات حصيلة كبيرة
كانت خير معين له عندما أخذ يحلل شخصياته النسائية في
قصتيه « بامبلا » ، « كلاريسا » .

وتزوج ريتشاردسون ابنة صاحب المطبعة وورث
المطبعة بعد وفاته ثم انتخب مديرا لشركة « ستيشنري »
وكان له شرف نشر مطبوعات مجلس العموم البريطاني وظل
مجهول الشخصية حتى عام ١٧٤٠ عندما نشرت قصته
« بامبلا » . وقد نيتت فكرة القصة في راسه عندما طلب
منه تشارلز رفنجتون وجون أوزبودن كتابة مجموعة من
« الرسائل النموذجية » في مواضيع مختلفة تصلح لمن فاتهم

قطار التعليم لكي يقتبسوا منها ما يحلو لهم - رسائل غرامية ورسائل للتهنئة والتعزية والحب والزواج وخطابات تجارية من والى الدائنين . وكان مقررا ان يخصص منها جزءا لخطابات موجهة الى « تلك الفتيات الجميلات اللاتي ستضطرهن ظروف الحياة الى العمل وكيف يستطعن التغلب على الشباك التي قد تهدد فضائلهن » .

وأذا كنا نجد مثل هذا النوع من النصائح للنساء والعاملات في صحفنا اليومية ومجلاتنا الاسبوعية في زمننا هذا ، ففي القرن الثامن عشر كانت هذه النصائح تظهر في مطبوعات منفصلة لتحض على الفضيلة . ونجد في تلك النصائح بعض الأمثال والحكم فمثلا كان لايد للزوجة من ان تخضع لسلطان زوجها وحكمه على تصرفاتها ، وكان لايد للاولاد من الطاعة العمياء لذويهم ولايد لهم من الحصول على اذن من الوالدين بالزواج .

وتعتبر « بامبلا » اول قصة تعالج الشخص . ومن خلال مجموعة من الرسائل تكتبها البطلة تبدأ القصة في الظهور ومن خلال هذه الخطابات نعلم ان بامبلا تعمل خادمة في منزل سيدة ثرية ، وتموت السيدة ويقع ابنها - مستر ب - في حب بامبلا ويبدأ في استغلال الموقف ويحاول التقرب اليها بطريقة غير شريفة . وتصده بامبلا وتضطر أخيرا الى مفادرة المنزل ولكنه يتعقبها وتظهر بامبلا عنادا شديدا للمحافظة على عذريتها فيرضخ السيد لعفافها ويوافق على الزواج منها . وفي الجزء الثاني للقصة وقد نشر في عام ١٧٤١ تظهر بامبلا كسيدة متزوجة تقاسى من خيانة زوجها لها مع نساء أخريات .

وتعتبر « بامبلا » كخالقها محررة رسائل ممتازة ، فهي تقول : « لى رغبة ملحة في الكتابة لدرجة اننى كلما خلوت الى نفسى لا استطيع الجلوس الا والقلم فى يدي »

وفي خطابها الأول تخبر والديها بموت سيدتها وبطبيعة سيدها الجديد . ويحذرهما والداها من اغراء سيد المنزل .

وعندما نصل الى الخطاب السابع نجد ان السيد قد ظهر على حقيقته وان شكوك والديها قد تحققت . ويفريها السيد بكل الطرق ويدفعها عجزها عن حماية نفسها الى محاولة الانتحار بالقاء نفسها فى النهر . وأثناء فترة النقاهة

والاستجمام ،وعندما أصبحت عاجزة عن الاتصال بأهلها ،
تبدأ في كتابة مذكراتها التي تقع في يد سيدها بعد ذلك .
ويعجب سيدها بتقواها وحبها للفضيلة يستيقظ ضميره
وتهتز مشاعره لهذا الطهر ويطلب يدها للزواج . ويبدأ قلبها
يميل نحوه ويتغير أسلوبها في رسائلها لأهلها فيبعد أن كانت
تعبّر عن احساسها نحوه بمثل اقوالها « هذا البائس » أو
« هذا الوحش » أو « هذا المخلوق الكريه » نجدها تتحدث
عنه قائلة : « سيدى الطيب العزيز » أو « المحسن الكريم »
أو « حاميتها القدير » .

وهكذا خلق ريتشاردسون شخصية مميزة بعيدة كل
البعد عن الأنماط السابقة ، فباميل تعتبر شخصية حية
تجذب القارئ اليها وتشده وخاصة من الجنس اللطيف .

وقصة ريتشاردسون الثانية تقع في سبعة اجزاء
وتعتبر أطول ماكتب من قصص، ففيها نحو خمسمائة خطاب
وتحتوى على مليون كلمة تقريبا ، وكل اهتمامه فيها
موجه نحو التحليل النفسى . وتطور فكرتها ببطء شديد
حتى انه قيل عنه « اذا كنت تقرا ريتشاردسون من أجل
القصة فانك لابد ستشئق نفسك »

ولم يستطع أحد أن يتحدى ريتشاردسون حتى ظهرت
قصة فيلدنج « تونج جونز » عام ١٧٤٩ وكان بطلها محتال .
والفرق بين ريتشاردسون وفيلدنج فرق شاسع من الناحية
الذهنية والاجتماعية . فيقال ان سلالة فيلدنج ترجع الى
عائلة هابسبرج وكان ابوه حفيد ايرك ديدموند . واذا كانت
قصص ريتشاردسون تتميز بالتحليل النفسى للشخص فان
قصص فيلدنج تتميز بالحركة الخارجية السريعة .

ويقول كوليردج « اذا قرأت فيلدنج بعد ريتشاردسون
فانك تكون كمن غادر حجرة مريض يدفنها الغاز الى روض
شاسع في يوم مشمس من أيام مايو »

وولد فيلدنج في عام ١٧٠٧ . وتعلم في ايتون ومنها الى
ليدين حيث درس القانون ، ومنعته ظروفه المالية من العمل
كمحام ، كما منعت ريتشاردسون من دراسة اللاهوت .
وانجه الى كتابة المسرحيات واستطاع ان يصل الى مركز
شريك مدير المسرح الصغير فى هاى ماركيت . وأخيرا صدر
عن البول رئيس الوزراء فى ذلك الوقت قانون يغلق أربعة

مسارح منها هذا المسرح لعرضها مسرحيات تنتقد سياسته .
وهكذا فقد فيلدنج عمسله ورجع الى الحمامة مرة أخرى
وترافع في عدة قضايا بهمة ونشاط وقد وضع نصب عينيه
دائما انتقاد الأخطاء واصلاح المفاسد .

وكان لهذه التجربة أثرها الكبير في تعميق نظرتة للحياة
وتوسيع ادراكه للطبيعة البشرية وتقلبات الحظ .

وكانت اول قصة له عبارة عن محاكاة في قالب هزلي
لقصة « بامبلا » وهي قصة « جوزيف اندروز » ونشرت في
عام ١٧٤٢ . وبطل القصة يعتبر أخا لبامبلا واسمه يوحى
بطهره وعفته « يوسف » وكما حدث لبامبلا ، نجد جوزيف
يدافع عن نفسه وشرفه من مراودة سيدته الأرملة واسمها
ليدى يوبى (وكلمة يوبى تحمل في اللفظة الانجليزية معان
كثيرة منها « الفخ » وتذكرنا بمستر ب في بامبلا) ويصبح
جوزيف فريسة لهذه السيدة ولكنه يقاوم اغراءها فتطرده
من منزلها . وسرعان ما ينسى فيلدنج الفرض الأساسى الذى
من اجله بدأ القصة وهو التهكم على « بامبلا » ، وتبدأ القصة
في اتخاذ الطابع الفكاهى المرح . وعلى قارعة الطريق يسلبه
للصوص ملابسه وتقوده ويتسركونه عاريا جريحا ترتعد
فرائصه من البرد والخوف . وأتاحت هذه الحادثة
لفيلدنج الفرصة لكي يدرس تصرف جماعة من المسافرين
في عربة تمر به . وربما ظل جوزيف بأثسا لولا مقابلته لراعى
كنيستة « القسيسى ابراهام آدمز » ويتحول اهتمام فيلدنج
من جوزيف اندروز الى القسيس آدمز الذى يخفى رداؤه
المتهدل أنبل قلب في الأدب . ويعتبر آدمز شخصا بارزا حتى
في عصر تخصص رسم الشخصوس . ويشبه آدمز في كثير
من صفاته دون كيشوت وكان فيلدنج من المعجبين بسير
فانير . فنحن نجد في شخصية آدمز خصالا حميدة مثل
الطيبة والكرم والعلم الفزير والتقوى ، وكل هذه الخصال
تمتزج ببساطة وبنوع من السداجة المحببة الى النفس
في شخصية رجل لا يضمم شرا لأحد ويعتبر الناس جميعا
وكان قلوبهم كقلبه في نقاء الذهب ، رجل لا يمس أحدا بأذى
ويهب للدفاع عن حقوق الضعفاء حتى ولو لم تواته الظروف
ولم تسمح له قوته البدنية بذلك . والقسيس آدمز رجل
قد يفرينا بالضحك منه ولكننا لا نستطيع أن نتغلب عليه أو
نهزمه .

واطراف القصة مفككة ولكنها تسير بسرعة من تعقيد الى تعقيد حتى تصل الى ذروتها . فتحاول ليدى بوبى أن تمنع زواج جوزيف من صديقه « فاني » بتراعى احتمال أن تكون « فاني » أخته ولكن يحل فيلدنج هذه العقدة يلجأ الى حيلة بارعة يقتبسها من الروايات القديمة ومن أوسطو فيتضح أن لجوزيف شامة مميزة على هيئة « فراولة » على كتفه تكفى لاثبات شخصيته فيعود الى والده الحقيقي . وفي نهاية القصة لا ينسى فيلدنج القسيس آدمز ويحظى الرجل الطيب بمعاش قدره مائة وثلاثون جنيها سنويا تقديرا لصبره وكفاحه من أجل اظهار الحق .

وفي « جوزيف اندروز » يحظى القارئ بعدد كبير من الشخصيات والحوادث . ولهذا تنبض القصة بالحياة والحركة والمشاهد السريعة . وتمتل الشخصيات فيها قطاعات مختلفة من المجتمع فنجد الاستقراطي الخليع والمحامى المخادع ورجال الاقطاع القساء وسيدات المجتمع الراقى وبنات الريف - كل هذا بصورة بارعة ، ومن خلال المفامرات والمواقف العديدة يظهر لنا فيلدنج العيوب والنقصات والسخافات . وفي هذه القصة لا يحاول فيلدنج أن يقنع القارئ بصديق ما يقول أو صحة مادته وإنما يعترف بجرأة أن قصته مصنعة وان شخصه خيالية . ولا نجد في قصته تحليلا نفسيا للشخصيات لان معظمهم من الصنف الانبساطى النزعة . ولكنه عوض هذا التقص بسرعة الحركة الخارجية .

اما قصاصنا الثالث سموليت فقد ولد في عام ١٧٢١ من عائلة اسكتلندية عريقة ، ودرس الطب في جلاسجو وكان يعمل للمسرح ميلا شديدا حتى انه حضر الى لندن في عام ١٧٢٧ وفي جيبه مسرحية ، ولكنها رفضت واضطر للعمل كجراح على السفينة كمبرلاند وكانت ترسو في قرطاجنة . واستفاد سموليت من هذه التجربة فيما بعد ، كما كان للمناظر البشعة في الجراحة قبل اكتشاف معرفة الكلوروفورم، ومناظر العنف في السفن القديمة التي كانت تعتبر سجوناً مائة والأمراض المنتشرة بين بحارتها كالنقرس وانجذام . أكد الأثر في نفسه . ولكنه استطاع أن يتغلب على مآسى الحياة بروح مرحة ساخرة . وعاد الى لندن في عام ١٧٤٤ ليعمل كطبيب ولكن سرعان ما نفذت ثروته وثرورة زوجته

من بدخه ، وعاد الى الادب والكتابة مرة أخرى في عام ١٩٤٨ .
عندما نشر « رودريك راندوم » وهو في العقد الثالث من
عمره . والقصة تنسب الى قصص البيكاريسك او أدب
الشطار وتظهر فيها حيوية الشباب وخصوبة الخيال
وسرعة الحكم على الأشياء . وهي سلسلة من المواقف
لشخص لا يعتقد مذهباً في الحياة . ويقودنا سموليت الى
عالم يخلو من القيم والمبادئ ، عالم أساس العواطف فيه
الحقد والكراهية والنميمة والقسوة وتحجر القلب ، عالم
لا تعنى الصداقة والمحبة فيه شيئاً .

وقد اهتم سموليت بأثر التشويه البدني في الشخص
وعالج كذلك الحالات النفسية التي تظهر اعوجاج
الشخصية ، واهتم بكل ما هو سخييف وغير معقول في
الطبيعة والحياة . وفنه هو فن الكاريكاتير وبراعته واضحة
في اظهار الميوب بأن يسلط عليها ضوءاً ساطعاً . واهمية
هذه القصة يرجع الى انها صورة صادقة مستوحاة من
تجربته الذاتية عن البحرية البريطانية وبحارتها في ذلك
الوقت .

**والشخص التي يرسمها لنا من البحارة شخص غير
سوية ومخلوقات غريبة الخلق، فقد تميز أسلوب سموليت
في الكتابة بالمفالة والمبالغة وليس بالوصف الدقيق
الفوتوغرافي مثل ديفو . والقصة على وجه العموم تعطينا
نموذجاً لقصص البحار ونستطيع أن نعتبرها أول قصة من
هذا النوع الذي أنجب لنا قصص كونراد وهيرمان ميلفيل
في القرن العشرين .**

ويأتي في نهاية قائمة كتبه « همفري كلنكر » سنة
١٧٦٨ وانتهى من كتابة هذه القصة في ايطاليا ، وهي على
شكل خطابات يكتبها الشخص المسافرون لأصدقائهم .
وهو لا يستعمل هذا الأسلوب الرسائلي لكي يملك شعور
شخصه مثل ريتشاردسون ولكن لكي يظهر لنا السخف في
اختلاف وجهات النظر من خلال وصف التجربة الواحدة
او المنظر الواحد من وجهات نظر مختلفة ومن خلال احكام
متضاربة .

وقد ارجأنا الكتابة عن لورنس ستيرن ١٧١٣ -
١٧٦٨ لشذوذ مكانته في تاريخ تطور القصة . فعندما وضع

فيلدنج تعريف القصة « كملحمة نثرية » تظهر حيويتها في سرد الحوادث وترتبط الواحدة بالآخرى ارتباطا عضويا منطقيًا ، لم يكن يدري أن لورنس ستيرن سيخرج عن هذا التقليد ويكتب قصة تخلو من الحكمة وتنشعب الى آلاف الأجزاء .

فقصة لورنس ستيرن وعنوانها « تريسترام شاندى » (١٧٧٦ - ١٧٥٩) قصة غريبة شاذة تخرق جميع قواعد القصة حتى قواعد اللغة والأسلوب والترقيم ويعمد فيها لورنس الى نبد الحكمة والحكاية معا . فلا شيء يحدث في القصة وبطلها لا يولد الا في نصفها تقريبا وتقع في ٩ مجلدات .

وتريسترام شاندى قصة بدون حركة ولا تتبع الا نظاما واحدا الا وهو مزاج مؤلفها الشخصى الشاذ وتوارد الخواطر الجزافى دون تنسيق .

وفي عصر كان يقدر العقل والمنطق والذوق السليم كان لورنس الوحيد الذى يقدر التخيل .

ولهذه القصة اهميتها فى الأدب الانجليزى لانها تعطينا فكرة عن مرونة القصة وصلاحتها للتشكيل . فقد أثبت لورنس ستيرن أن الأفكار فى استطاعتها أن تحل محل الحوادث فى القصة وأن التلاعب بالألفاظ وتحريكها من الممكن أن يعوضنا عن الحركة فى السرد ، وأنه من الممكن لشخصين مسنين لديهما حب غريزى للكلام أن يسحرأ القارئ بقوة تعادل افتنانه بإبطال وبطلات القصص العادية .

وقد ولد ستيرن فى كلونميل بايرلنده فى ١٧١٣ وكان والده ملازما فى الجيش وتعلم ستيرن فى هاليفاكس ومنها الى كمبردج وأصبح قسيسا فى عام ١٨٢٨ . وفى عام ١٧٥٩ بدأ كتابة « تريسترام شاندى » وانتهى منها قبل موته بعام واحد .

وقد اطلق على لورنس ستيرن أحيانا لقب « العبقري اللص » لأنه عندما بيعت محتويات مكتبته فى عام ١٧٦٨ وجد أنها تحتوى على تشكيله غريبة من الكتب استطاع ستيرن أن يسلب ما تحتويه من معلومات غريبة فى الدين والفلسفة والأدب واللغات ليستعملها فى قصته الفريدة .

وبجوار هذه المجموعة من الكتب كان هناك « تشريح
الميلانخوليا » لبيرتون وأعمال رابيليه و « دون كيشوت »
لسيرفانتير

ولم يكتف لورنس باستعارة الأفكار من هذه الكتب
بل كان ينثر بعض القطع منها في أسلوبه الخاص أو ينقلها
كما هي أو يقتبس بحرية ويعتبر الكل وكأنه ملك خاص له ،
ويقال انه كان يجمع مادة قصته كما يجمع العطار أو
الصيدلى الأدوية ، ويسكب محتويات زجاجة في أخرى .
دون أن يشعر بحرج . وكانت نتيجة هذا الخليط والمزج
اكسيرا ممتعا لدرجة أن أحد معاصريه وصفه بأنه « أكثر
عبقرية وأكثر امتاعا من قبيلة القصاصين عن بكرة أبيها »

وأكثر المتعة في هذه القصة تكمن في عنصر المفاجأة وقد
قال ستيرن مرة « أنه لو علم أن القارئ سيكون عنده فكرة
عن الجملة التالية للجملة التي يقرأها لأباد هذا الكتاب » .
فبدلا من السرد المستمر للحوادث وبدلا من القصة التي
تعالج حياة شخص في ثلاثين عاما نجد أن معظم الحركة في
القصة تتركز في صالة منزل شاندى حيث يحاول البطل
جاهدا أن يخرج الى الحياة من بطن أمه . فبطل القصة
الحقيقى ، عندما تبدأ القصة ، هو الجنين وما في القصة
يدور حول شخصين مسنين ليس لهما هم في الحياة سوى
تجاذب أطراف الحديث . فيستر شاندى (والد البطل) تاجر
ديوك رومى يمضى وقته مع أخيه « توبى » فى الحديث ويعتبر
شاندى مثل دون كيشوت إلا أن مغامراته مغامرات ذهنية يلمح
فيها بمحاولاته فى أن يربك العقل والمنطق ، ويعتبر توبى
مثل سانكو بانزا ، الرجل العامل الذى لا يشور بسرعة .
والزوجة سيده غبية تتمتع ببلادة ذهن فريدة فى نوعها .

وقد صب ستيرن فى محتوى كتابه أشياء كثيرة فقد
كتب عن أغرب المخترعات والمتناقضات والنكت والتأملات .
كما ترك صفحات بيضاء فى الكتاب واعتبرها فصولا من
القصة وبعض الصفحات بها خطوط وكأنها لوحة من
الرخام ، وصفحات سوداء وأخرى بيضاء مملوءة بالنقط
والنجوم التى تستعمل فى الطباعة . ونجد أحيانا قطعة
باللاتينية ومعها فى الصفحة المقابلة ترجمتها للإنجليزية ، كما
تقابل أشياء أخرى تثير الغموض والاستفهام لأن بعض
الأسطر فى الصفحات تدور حول نفسها كرموز المتصوفين .

وقد نجد خمس جمل في أحد الفصول بينما يتكون فصل آخر من جملة واحدة . وبعض الفصول قد ينتهى بنوع من الهذيان يظهر على شكل كثير من علامات النجوم .

والقصة بوجه عام تبين بوضوح رغبة القرن الثامن عشر في المعرفة والعلم . وربما لم يحظ الكتاب بعطف النقاد في العصر الفكتورى ولكن قراء القصة في القرن العشرين يدركون أهمية لورنس ستيرن وخاصة بعد قراءة جيمس جويس الايرلندى والذي تشبه قصته عويلس الى حد كبير قصة ستيرن .

وإذا كانت القصة قد عبرت اصدق تعبير عن الحالة الاجتماعية والفلسفية والاجتماعية في القرن الثامن عشر فإنها بدأت في أواخر القرن الثامن عشر تتور عن العقل والمنطق وتسير في طريق لا شعورى نحو ما يعرف بقصص الفزع والرعب . ولم يستطع الانسان أن يواجه لفترة طويلة من الزمن ما يمليه عليه العقل والمنطق . وأول من مهد لهذا السبيل هو الفيلسوف الاسكتلندى دافيد هيوم ١٧١١ - ١٧٧٦ حين أعطى الرغبة والاحساس كل سئطان على الفكر والعقل والمنطق وتبعه روسو ١٧١٢ - ١٧٧٨ يدعون الى الغريزة والشعور والعودة الى فكرة الانسان الفطرى النبيل . وقد وجدت الحركة الرومانتيكية أعظم تعبير عنها في الشعر ، أما فى القصة فتظهر الرومانتيكية فى اهتمام كتاب القصة فى أواخر القرن الثامن عشر بموضوعات تثير الفزع والرعب والخوف وأهمها ما كان يدور حول الأطلال والقبور والأماكن المهجورة ، ويقابل هذه المدرسة فى الشعر ، شعراء القبور أو الجبانات .

وتظهر الرومانتيكية فى قصص الغموض والخيال بظهور « قلعة أوترانو » لهوراس والبول ، وقد نشرت فى عام ١٧٦٤ ، وبعدها فى عام ١٧٧٣ ظهرت مقالة بعنوان « المتعة المستمدة من بواعث الخوف » وأخرى بعنوان « بحث لأنواع الحزن الذى يجلب احساسات لذينة » .

1. — On the pleasure derived from objects of terror.
2. — An Enquiry into those kinds of distress which excite agreeable sensations.

وكان « والبول » يؤمن بالواقعية التى كانت قد بدأت تفقد قيمتها الفنية وأراد أن يطور القصة ، وكان الرجوع الى حكايات وروايات العصور الوسطى يعتبر تكسنة لا يقبلها تطور القصة . وتوصل والبول الى نوع من

المواثمة بين حكايات العصور الوسطى وسداجة موضوعاتها
وسعة خيالها وواقعية القصة في القرن الثامن عشر . ولكي
يعطى لقصته جوا غريبا ادعى انها مخطوطة اثرية كتب في
نابولي في عام ١٥٢٩ ووجد في مكتبة عائلة كاثوليكية في
شمال إنجلترا . وبعد نجاح القصة كتب لها مقدمة ثانية
واعترف فيها بتأليفه القصة وقال انها خليط من الرومانس
القديم والقصة الحديثة .

وقد سبق هوراس والبول في هذه الحيلة البارعة
شاعرا آخر في ذلك الوقت اسمه جيمس ماكفيرسون الذي
شر في عام ١٧٦٠ قطعا شعرية ادعى انها مترجمة لشاعر
اسكتلندي عاش في القرن الثالث الميلادي واسمه
« اوسيان » . وما يهمنا في هذه المرحلة هو ترحيب الأدباء
في أوروبا ، وخاصة في فرنسا وإيطاليا وألمانيا ، بهذه الترجمة
وخاصة عندما علم بها جوته . كما انها مهدت الى حد ما
للحركة الرومانتيكية في الأدب (

وتعتبر مسز آن رادكليف من أحسن كتاب قصص
الفرع والرعب وكان معظم الشعراء الرومانتيكيين الصغار
يعجبون بها وخاصة شيللي واستعار منها بيرون شخصية
لارا وشخصية مانفريد . وكان اهتمامها بما هو غامض ومثير
وخارق للطبيعة عظيما ولكنها كانت تحكم العقل في إنتاجها
وكانت مثالية لدرجة انها لم تستغل كل ما هو مثير ومرعب
بل تخصصت في التحليل النفسي للخوف وكل ما يرتبط
بخوارق الطبيعة . كما انها برزت في خلق الجو المناسب
لقصصها وفي وصف روعة الطبيعة ورهبتها .

واحسن قصة لها هي « اسرار اودولفو » وظهرت في
عام ١٧٩٤ وتمتع هذا الكتاب بشهرة واسعة وتبعه عشرات
من القصص التقليدية . وتدور حوادث القصة في القرن
السادس عشر وتفقد « اميلي » بطلنة القصة والدتها وتصبح
تحت سيطرة عمتها القاسية مدام تشيرونه وتقع اميلي في
غرام فالانكورت وهو شاب من اسرة عريقة ولكنه ليس
غنيا . ولكن العمدة التي تزوجت رجلا ايطاليا شريرا ترحل
باميلي الى قلعة اودولفو في جبال الابنين ، في القلعة وعن
طريق الحوائط المنزقة والابواب السرية والسراديب والأنفاق
الخفية والاصوات المزعجة ، تحدث حوادث غريبة تقشعر
لها الابدان وتهرب اميلي وتقابل فالانكورت مرة ثانية وبعد

مشاحنات عديدة تتزوجه ويظهر أن زوج عمته لص ويزج به في السجن .

وهكذا وفي أواخر القرن الثامن عشر ، وبفضل دقة الشعور والاحساس عند ريتشاردسون ، وبفضل عبقرية فيلدنج وغازارة مادته ، وبفضل سخرية سموليت وقوة ملاحظاته ، مهدت هذه المحاولات لاعتماد القالب الذي استمرت القصة تصب فيه لمدة مائة عام . ولكن بالرغم من هذه المحاولات كانت دراسة النفس البشرية سطحية بعد ريتشاردسون ولم يهتم فيلدنج أو سموليت بمعرفة الدافع النفسى وراء الشدود فى الطباع البشرية وغازابة أطوارها . وظلت الشخصوص ، وخاصة النسائية منها ، كالأشباح فى القصص من بعدهم حتى بدأت شارلوت وامبلى يرونتى فى الكتابة فى القرن التاسع عشر .

ويمكننا القول بأن قصاصى القرن الثامن عشر كانوا سلوكيين فى علم النفس ونفعيين فى فلسفتهم ومهما يكن من أمرهم فقد تمكنوا من خلق الشخصوص ولو لم تكن كاملة وظلت مرتبطة بالفكرة الشائعة فى العصور الوسطى والقرن السابع عشر ولم تخرج عن كونها تقليداً للأمزجة الأربعة الرومانتيكية فى القصة .

والقصة الانجليزية تدين بالكثير لسير والتر سكوت (١٧٧١ - ١٨٣٢) فقد كانت عبقريته هى المادة التى حولت العناصر المفزعة فى قصص الخوف والغموض الى شىء جديد ، وكان احساسه العميق بالماضى وبالتاريخ هو القوة الخلاقة فى قصصه . واذا كان فيلدنج وريتشاردسون وسموليت قد عكسوا الحياة والطبيعة فى قصصهم بحيث أصبح أدبهم المرأة للقرن الثامن عشر فقد أدار سير والتر سكوت هذه المرأة نحو العصور الوسطى ونحو الماضى البعيد البعيد الذى لم يعرف عنه معاصروه شيئاً . فقد اقتبس وحولها الى أدب قصصى ، وهكذا خلق من العظام الجافة سكوت لآحياء القصة التاريخية ولكنها لم تكن بنفس القوة . شيئاً حيا ينبض بالحركة والجمال . يأخذ كالمساحر القدير يمشى بين القبور وحطام الحضارات القديمة فى الماضى يوقظ شبابها ويعيدها للحياة . وقد كان هناك محاولات قبل سكوت الأسماء والتواريخ من كتاب بمسيط فى التاريخ ولكن بعد سكوت أصبح هم كل أديب هو اكتشاف جذور

جديده في باطن الارض من الازمان الماضيه ليعطيها قوة
ونضارة وحيوية .

وربما كان لدينا الآن كتب تاريخية ، أعمق بكثير مما كتبه
سكوت ولكن يجب ألا ننسى أن سكوت كان ادبيا قبل أن يكون
مؤرخا . وقد حاد سكوت عن التسابع الزمني للاحداث
أحيانا واختلق مواقف جديدة وأعطى لنفسه الحرية في خلق
أسباب شخصياته وتطوير وتغيير عاداتهم وأذواقهم - ولكن،
بالرغم من كل هذا فقد أحيى التاريخ وكانت محاولته
رائعة . فقد وجد التاريخ كمجموعة من الصور في فانوس
سحري بأشخاصه وحوادثه وأضفى عليها روح الاستمرار
والحركة من عنده . ولهذا يمكننا القول بأن نظريته للتاريخ
كانت نظرة اليزائيه رومانتيكية . وليست نظرة علمية
دقيقة واقعية . وكان سكوت يعتبر الحوادث الجسم نتيجة
وتعبيرا عن مصير الانسان وحظه من الخير والشر وليست
تسجيلا للحوادث التاريخية .

فقد كانت شخصه تعرف أدوارها ، مجبرين على
القيام بها . وقد صور سكوت تصرفات شخصه ولكنه لم
يتعمق في دراسة الدوافع والأسباب النفسية ولم يحاول
أن ينفذ الى أعماقها .

وهكذا يختلف أسلوبه في تصوير الشخصيات عن
كاتب القصص التاريخي الحديث . وإذا كان سكوت قد
حاول أن يزين الماضي فربما لأنه كان يريد أن يعطي معاصريه
الفكرة بأن الحاضر يحاول عبثا أن يحطم قيم الماضي ، فقد
كان سكوت يحب روح العصور الوسطى التي كانت تجمع
الناس حول نوع من الأخوة التي تظهر في شخص المسيح
عليه السلام . وربما كان يرى في عصره عصرا تسوده روح
المنافسة والفردية وحب السيطرة ، عصرا يهتم بجمع المال
ويتبع فلسفة عدم التدخل أو إطلاق اليد Laissez-faire

عصرا تسوده روح عدم الاكتراث والأثو وحب
النفس وعندما اتصل بالماضي وأحياءه في قصصه كان
يحاول أن ينعم بدفء ناره قبل أن تصبح رمادا .

وكان سكوت رجلا محافظا يحب التقاليد والعادات
القديمة وكان واعيا للدور الذي تلعبه الطبقة الفقيرة المتواضعة
في التاريخ ولم يقلل من قيمة دورها . وقد تمتع سكوت
بالشهرة حتى بعد موته بمائة عام ولكن طريقته أصبحت غير

مقبولة في عصرنا وغلبت نواحي الضعف في قصصه على ما حققه من حسنات ، فنحن نجد بطلانه الآن كالملائكة وحواره طويل ومملا وإبطاله كثيرى العدد . ومن حسناته مقدرته الفائقة في تصوير جمال الحركة والعمل البطولى وخاصة في المعارك وغزارة معلوماته التاريخية . وبالرغم من عدم اهتمامه بالتحليل الدقيق للعاطفة فقد كان يهتم بقوة العاطفة بوجه عام . وسرح قصصه مزدحم بالشخوص العديدة ويعتبر رسمه للشخوص الثانوية راعيا ولهذا يعتبر في الادب الانجلىزى كاتباً ديموقراطياً .

وقد اعطانا العصر الذى نشأ فيه سكوت كاتبة قصصية ممتازة ولكنها على النقيض من سكوت لم تكن رومانتيكية النزعة . وبجوار لوحات سكوت الزيتية المليئة بالحركة والالوان ، تظهر قصص جين اوستن (1775 - 1817) وكأنها صور مصفرة منقوشة على العاج . فقد كانت جين اوستن تعلم جيدا ما تريد ، وتدرك حدود امكانياتها ولهذا وصلت الى الكمال فى ميدانها ولم تخف فى حكمها على الشخوص ولم تترك خيوطا معلقة فى قصصها ولم تضيف الى صورها ألوانا زاهية او زائدة ، ولم تترك اثرا فى سردها للاهمال او لعوامل الصدفة او التخمين فى التركيب أو الحكمة فنحن نجد انه من الصعب علينا ان نعيد قول ما كتبت فى قالب هزلى .

وقد وضعت جين اوستن نفسها فى عزله عن الحركات السياسية والاجتماعية التى كانت تشغل بال اوروبا فى ذلك الوقت . فقد تجد جنديا فى قصصها ولكنها لا تهتم الا بآثر بدلته العسكرية الجميلة فى نفوس السيدات الصغيرات ، واذا ذكرت بحارا فى قصة اخرى فلكى تتكلم عن ضعف مرتبه وعن الصعاب التى تلاقيها زوجته . وتجنبت آثاره الثورة الصناعية فى انجلترا وعاشت فى الريف بعيدا عن المدن وصخبها ، واذا سافرت احد بطلاتها فان رحلتها لا تتعدى تغيير جو المنزل الريفى آخر قريب . وتجنبت ايضا الالم الرومانتيكى الذى عاناه شعراء هذه الفترة فقليل جدا من شخوصها النسائية تأثرن بالشعر الرومانسيكى أو قرآن روايات الفرع والرعب والغموض التى تحدثنا عنها . وفى عالمها الذى صورته وعاشت فيه لا نجد اثرا للفقر المدقع ولا الثراء الفاحش . وقصصها تدور حول ثلاث أو أربع عائلات يعيشن فى انسجام تام تدور

معاملاتهم في دائرة اجتماعية ضيقة تحكمها العادات الطيبة والمنطق السليم .

وفي هذه الدائرة الضيقة لم تكن هناك حوادث تثير الزوابع أو تعكس صفو هذا الهدوء أو تجعل ماء هذه البحيرة الصافي يضطرب بالاحداث الهائلة . وكان أهم ما يشغل بالها هو الزيارات من آن لآخر ، والقييل والقال ، والافراح والشراء من الاسواق أو التحدث عن العائلات الجديدة . وكان أهم واخطر حدث يمكن ان يحدث هو « حفلة رقص » واقطع شيء هو فرار رجل مع آنسه .

ومن ناحية أسلوبها فهي لا تضيع وقتها في الوصف بل تندفع قوتها نحو هدفها وهو الكشف عن شخصياتها من خلال الحوار . وبطلاتها بالرغم من اخطائهن وغلطتهن يعتبرن « سيدات » . وشهرة جين أوستن الادبية واسعة ويعتبر الوصف غير المباشر للشخصوص مغلها في الادب الانجليزي والانماط العديدة التي تضعها تظهر لنا في شكل طبيعي وبدون تكلف من خلال الحوار ، وكثيرا ما تفصح تفصح عن انفسها بعبارة واحدة . ويعتبر أسلوبها أسلوبا فنيا عاليا فيه سخرية فيلدينج اللاذعة وحبكات قصصها توحى بعقلية فذة ولو أنها غير رومانتيكية وتدور معظمها حول وصف الحياة وكأنها لعبة لكسب زوج أو اقتناص عريس مناسب .